

الذهب في السودان من خلال المكتشفات الأثرية

قسم الآثار -جامعة بحري

أ.د. عبد الرحيم محمد خبير

مستخلص :

ظل وادي النيل غنيا بالثروات الطبيعية مثل المعادن والأحجار الكريمة وغيرها. ولعل أهم هذه المعادن النحاس في النوبة العليا(بوهين) ويعتبر الذهب ثاني أهم هذه المعادن. وتم العثور عليه في أماكن عديدة بالنوبة السفلى (جنوب مصر) والعليا(شمال السودان) وبخاصة بمنطقة بطن الحجر ووادي العلاقي في الصحراء الشرقية. وكان توفر هذا المعدن هو الدافع الرئيسي للفراعنة المصريين لإحتلال بلاد كوش في أحقاب تاريخية مختلفة. ولا ريب أن معرفة قدماء السودانين(الكوشيين) المبكرة لتقنية الفخار (3200-8650ق.م) والنحاس والذهب (1500-2500 ق.م) بخاصة عملية التحكم في درجة الحرارة و استخدامها الأمثل بواسطة الأفران مكنتهم لاحقا من الإستيعاب السريع لتقنية المعادن و الإستفادة منها في شتى مناحي الحياة . وكشفت الحفريات الأثرية المتلاحقة عن كميات ضخمة من معدن الذهب في السودان سيما في العهد الكوشي(المروي) (900 ق.م-350م) والذي تم تعدينه وصهره وصناعته على هيئة أدوات زينة(أختام، أسورة ،عقود ، تماثمالخ) وأحيانا لتغطية التماثيل، الأدوات وتطعيم بعض المصنوعات الأخرى.

Gold in the Sudan from Archaeological Discoveries

Prof.Abdelrahim Mohamed Khabir Hassan

Abstract:

The Nile Valley has remained potentially rich in varied minerals and precious stones since times immemorial .Copper is one of the most important minerals quarried in Upper Nubia(Buhen).The second important mineral being gold that had seen the horizon in several regions in Nubia(northern Sudan and lower Egypt),allocated particularly in the Sahara of Batn el-Hajar and Wadi al-Alagi in the eastern desert.The expertise acquired by the ancient Sudanese (Kushites) as a result of long experimentation with the pyrotechnology of pottery (ca. 8650-3200 B C), copper and gold (cm 2500-1500 BC.) warrants their rapid inception of metallurgy and its usage in various ways of life. Subsequent archaeological excavations have brought to light large

quantities of gold in Sudan especially during the Meroitic kingdom (900B.C- A.D.350). The raw gold was smelted and manufactured in the form of ornaments (rings, necklaces, bracelets and amulets) and often used for covering statues ,tools and other finds.

مقدمة:

اشتهر السودان بمعدن الذهب إذ أنه أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت حكام مصر منذ القدم يولون وجوههم الشطر الجنوبي لوادي النيل لثراء هذا القطر بموارده المعدنية سيما الذهب. ولا غرو إذن أن أطلق الفراعنة المصريون إسم «النوبة» على المنطقة الممتدة من أسوان شمالاً حتى جزيرة تنقيس إلى الجنوب من دنقلا العجوز جنوباً. وإشتقت اسم النوبة (Nuba) من كلمة «نوب- Nob» ومعناها باللغة الهيروغليفية المصرية «الذهب». ولقد كانت النوبة في عهد الدولة الفرعونية المصرية الحديثة (1069-1552 ق.م) تسمى «أرض آمون الذهبية».

الذهب في وادي النيل القديم: مدخل عام:

وادي النيل غني بالثروات الطبيعية مثل المعادن والصخور الجيدة (الديورايت) والتي كانت تستغل في العديد من الأغراض. أما أبرز المعادن التي استغلها الفراعنة المصريون في بداية بسط نفوذهم على بلاد النوبة فهو النحاس (بوهين) الذي نضب تماماً بعد مائتي عاما من إستغلاله في عهد الدولة المصرية القديمة (2181-2686 ق.م) (Adams 1977: 40). ويلاحظ أن الذهب هو المعدن الوحيد الذي يوجد في معظم أجزاء السودان القديم (النوبة). وتقع جيوب من خامه في أرجاء شاسعة حيث يتبدى المركب البركاني لصخور القاعدة في السودان ومصر معاً. ولوحظ أن الهضبة الصحراوية من وادي النيل إلى البحر الأحمر تشتمل على عشرات المناجم وحفر الإستطلاع المهجورة إذ كانت للفراعنة شهية شرهة للذهب. غير أن المناجم الأكثر تعدداً وأشد إنتاجاً كانت ملقاة على طول وادي العلاقي وروافده بين النوبة السفلى والبحر الأحمر، إنها تقع في الصحراء بعيداً إلى شرق وادي النيل المأهول ، ولم تكن جزءاً من النوبة. بيد أن موقعها كان له عبء هام على تاريخ السودان القديم. فبادئ ذي بدء، ألزمت مصر بأن تسيطر على وادي النيل إلى مبلغ يدخل وادي العلاقي في إتجاه الجنوب ، (70) ميلاً جنوب أسوان، كي تبقى طريق القوافل الرئيسي مفتوحاً (أنظر أدناه) (شكل:1).

1- الذهب في مصر:

حظي الذهب بأهمية قصوى لفراعنة مصر منذ عهد الدولة الوسطى (1786-2050 ق.م). وتم العثور في هذه الفترة على لوحة في منطقة « أدفو» بصعيد مصر تشير إلى أحد الموظفين المصريين يذكر فيها إنه جلب الذهب من كوش بكمية تقدر ب4200 جراما كما عثر في الحصن الغربي لمنطقة سمنة على نقش مصور لميزان لوزن الذهب (علي:2023:60). ووجدت خلال الحملة الأولى لإنقاذ آثار النوبة نقوش موازين للذهب (المرجع والصفحة نفسها). وإذدادت أهمية الذهب خلال الدولة الحديثة (1069-1552 ق.م). وعرف المصريون القيمة الجمالية للذهب وميزته بين المعادن الأخرى إذ أنه لا يصدأ ولا يتحلل. فصنعوا منه الحلي والتماثيل

الصغيرة وشبهوا أحيانا أجسام الآلهة بالذهب (كقولهم حورس الذهبي). وإكتسب الذهب في عهد الدولة المصرية الحديثة قيمة إضافية وصفت بـ«القيمة الدبلوماسية» (دفع الله 1999: 289) سيما بعد إتصال المصريين بملوك سوريا والحيثيين في هضبة الأناضول التركية. وأصبح الذهب وسيلة إغراء لهؤلاء الحكام يقدمه الفرعون المصري لتقوية أواصر الصداقة مع نظائره في الأقطار الأخرى لإكتساب حلفاء وأصدقاء جدد. واستخدم الذهب أيضا داخل مصر نفسها ليقدم على هيئة ميداليات للمتميزين والمقربين من البلاط الفرعوني (Trigger 1976:113). وتشير حوليات الفراعنة إلى كميات الذهب التي حازوا عليها من السودان (كوش). فالملك تحوتمس الثالث (1504-1450 ق.م) يذكر أن معدل الذهب الذي يستخرج من الواوات يبلغ 260 كيلوجرام سنويا. وأبان كذلك أمنحوتب الثالث (1364-1402 ق.م) عزمه القوي في الحصول على الذهب من الصحراء الشرقية وكشف عن مناجم جديدة عرفت بإسم «أكويتا». وإستمر إستغلال الذهب في العهد الفرعوني حتى فترة حكم الملك رمسيس التاسع (1227-1109 ق.م) (ibid.).

2- الذهب في السودان:

إشتهر شرق السودان ووادي العلاقي بصفة خاصة بتوفر معدن الذهب. وثمة أدلة أثرية تفيد بأن السودانيون عرفوا الذهب وتعدينه في عهد مملكة كرمة (2500-1500 ق.م). وتعتبر تجارة الذهب من أهم العوامل التي أدت لإزدهار هذه الدولة أيام حكم الهكسوس لمصر (1674-1650 ق.م). ونجد أن مملكة كرمة التي توسعت في النوبة السفلى في مرحلتها الكلاسيكية (1750-1575 ق.م) استولى حكامها على مناجم كوبان وصرة شرق وهما اللتان تطلان على وادي العلاقي بالصحراء الشرقية. وربما تمكن حكام كرمة بمساعدة قبائل الصحراء (المدجاي) وبعض المصريين من تشغيل تلك المناجم وإحتكار تجارة الذهب في وادي النيل (دفع الله، مرجع سابق: 229). واستغلت مناجم الذهب في شمال وشرقي السودان في المنطقة الممتدة من نبتة إلى البحر الأحمر. وهذه الحقيقة يؤكدها الإندفاع الكبير من أجل الحصول على الذهب في الصحراء الشرقية كما توضحها حركة التعدين النشطة التي تجرى الآن بواسطة حكومة السودان في ذات المنطقة. وتدل آثار المرويين وكتاباتهم على أنهم عرفوا الذهب وامتلكوا كميات كبيرة منه. ومن أمثلة ذلك ما ذكره الملك تهارقا (-690 664 ق.م) عن كميات من الذهب أهداها لمعبد آمون في الكوة. وأشار الملك نستاسين (310-335 ق.م) إلى غنائم هائلة إستولى عليها من أعدائه بدو الصحراء الشرقية. ولاريب أن كنز الملكة أماني شخيتي (12-41 ق.م) لدليل آخر على إهتمام المرويين بالذهب وإمتلاكه ضمن مجوهراتهم الثمينة (أنظر الزاكي 2006: 146). وجدير بالذكر أن أهمم منطقتين لتعدين الذهب في السودان القديم بالصحراء النوبية الشرقية: الأولى وادي العلاقي والثانية قبقة. وهما أن المنطقتين يتوجب الوصول إليهما عبر إقليم الواوات (يمتد من أسوان وحتى الشلال الثاني) (خبر 2021: 26). لذا إكتسب هذا الإقليم أهمية إقتصادية خاصة وربما بسبب علاقته الإستراتيجية بذهب الصحراء الشرقية. وتمت تسمية الذهب المستخرج من هذه الجهات بـ«ذهب واوات» (دفع الله، مرجع سابق: 290).

تعدين وصياغة الذهب:

وجد الذهب في مناطق متفرقة من وادي النيل على هيئة عروق صخرية أوترسبات في الصخور والرمال وأحيانا في التربة الطينية في أودية الصحراء (علي، مرجع سابق: 60). وكان إستخراج الذهب من مصادره

الصخرية في غاية الصعوبة حيث يستلزم ذلك تفتيت هذه الصخور ثم سحبها وتحويلها إلى مادة ترابية فإستخلاص ما فيها من معدن الذهب.ومما يزيد صعوبة إستخراج ذهب الصحراء ندرة المياه ووجود قبائل بدوية متحفزة للإعتداء على الغرباء(المدجاي).فكانت بعثة التنقيب الفرعونية ترافقها قوة عسكرية للحماية. ويتم الحصول على الماء إما بحفر الآبار أو بجلبه على ظهور الدواب من النيل(دفع الله، مرجع سابق:287). ويبدو أن أغلب المشغولات الذهبية للمرويين كانت مخبأة في المدافن الملكية.غير أن غالب هذه المدافن تعرضت للنهب عبر العصور المختلفة.ولعل أبرز المجوهرات المروية المنهوبة تلك التي تخص الملكة أماني شخيتي التي تمت الإشارة إليها بعاليه. ولقد كشف عن هذه المجموعة من المجوهرات الطبيب الإيطالي جوزيف فرليني الذي يعتبر أحد لصوص الآثار. وكان قد جاء إلى السودان للعمل

في خدمة الحكومة التركية عام 1830م. واستقال من عمله وأجرى حفريات عشوائية في عدة مواقع أثرية بشمال السودان (ود بانقا والنقعة والمصورات) عام 1834م. وبعد أن فشل في الحصول على كنوز ثمينة (ذهب ومجوهرات) هده تفكيره إلى حفر أحد أكبر الأهرامات المروية الخاص بالملكة أماني - شخيتي عند طرف التل بالجبانة الشمالية في البجراوية. ونشر فرليني تقريراً عن مكتشفاته في هرم هذه الملكة سنة 1837م لكي يلفت الانتباه العام للكنز الذي بحوزته(أنظر الزاكي،مرجع سابق:76).

معظم المجوهرات التي نراها في نقوش الملكات المرويات صنعت من الذهب وتضم أقراطاً للأذن والأصبع وقلادات وأسورة وخواتم وأحياناً تكون مطعمة بأحجار شبه كريمة أغلبها من العقيق الأحمر. ويلاحظ أن صنعة الذهب لأغلب الأمثلة من الطابع الهيليني - المصري. ومن الواضح إنها لم تدرس بشكل مفصل حتى الوقت الحاضر. ويرجح أن معظم هذه المشغولات الذهبية صنعت محلياً. وتوضح التصاميم أن هناك تنوعاً كبيراً في هذه النماذج. غير أن رأس حتحور (معبودة مصرية في عهد الدولة المصرية القديمة برأس بقرة ووجه سيدة مليحة وبين قرنيها قرص الشمس ورمزها الشخشيشة المقدسة وكانت إلهة للجمال والحب والموسيقى) هو العنصر الأساسي لأقراط الأذن. والملفت للإنتباه أن تصاميم العديد من الأقراط محفورة بالأسلوب المصري وبعضها تظهر عليه أشكال معبودات (أكثرها شيوعاً إيزيس) ورموز فرعونية أخرى. وقليل من هذه الأقراط ذات تصاميم إغريقية مستوردة(أنظر أدناه). ولعل من أهم المكتشفات الذهبية للعهد المروي (900 ق.م - 350 م) تلك التي تم التعرف عليها في مقبرة الملكة أماني - شخيتي (41 - 12 ق.م) وهي إحدى الملكات اللائي عرفن باسم الكنداك (الملكة الأم). ويبين السجل الأثاري كنزا ثميناً من المجوهرات لهذه الملكة يحتوي على حلي ذهبية وأحجار كريمة للزينة بالإضافة إلى بعض القطع الفريدة التي دفنت بمقبرتها في الجبانة الشمالية لمروي - البجراوية (الهرم رقم 6) شرق المدينة الملكية على بعد (210) كيلومتراً شمال الخرطوم. ويشير الباحث الألماني كارل هانز بريشيه في كتابه الموسوم بـ «ذهب مروي» (ترجمة وتقديم صلاح عمر الصادق، 2005م) إلى تفاصيل المشغولات الذهبية للملكة أماني - شخيتي. وجدير بالتنويه أن عنوان هذا الكتاب غير دقيق لأنه لا يتحدث بشكل عام عن ذهب مملكة مروي إنما يقتصر حديثه عن جزء من مجموعة المصوغات الذهبية للملكة أماني - شخيتي المعروضة بمتاحف ألمانيا (برلين وميونخ) وهي أقراط، عقود صدرية، سلاسل، أسورة معاصم، أختام درعية وأخرى منقوشة وتماثيل ذهبية للآلهة أمون وخنسو، مجموعة من التماثيل الصغيرة، علامات العنخ(الحياة) ومتفرقات أخرى(الزاكي، مرجع سابق: 75)(لوحة:1).

وتضمنت المصوغات الذهبية حلى جسدية كانت ترتديها الملكة أماني - شخيتي. ومما لا ريب فيه أنها فعلياً قد لبستها واستعملتها في حياتها بدليل كثرة آثار الحك والتآكل مما يضعف الاحتمال إنها صنعت فقط لإستكمال شعائر الدفن الجنائزية. وبالإضافة إلى ذلك، يبدو أن هذه المشغولات الذهبية لم تكن جزءاً من شارات الملك الرسمية والمعروفة في العديد من الرسوم المنقوشة لها، فلا توجد تيجان أو أكاليل أو صولجانان النصر من الذهب أو عصي أو عقود مناسبة أو حتى أسورة أذرع تحمل صوراً وأشكالاً مختلفة عن تلك التي نراها على أذرع الملوك المرويين.. ولا يعرف على وجه الدقة عما إذا كانت المشغولات الذهبية قد صنعت بمروى بواسطة فنانون مرويين أو بواسطة إغريق إذ ثبت وجود جالية إغريقية من نحاسي الحجر بها(بريشيه، مرجع سابق). ويرجح بعض الباحثين وجود صاغة للذهب من الإغريق في مروى في عهد الملكة أماني-شخيتي في القرن الأول قبل الميلاد (الزاي، مرجع سابق:76).

الخلاصة:

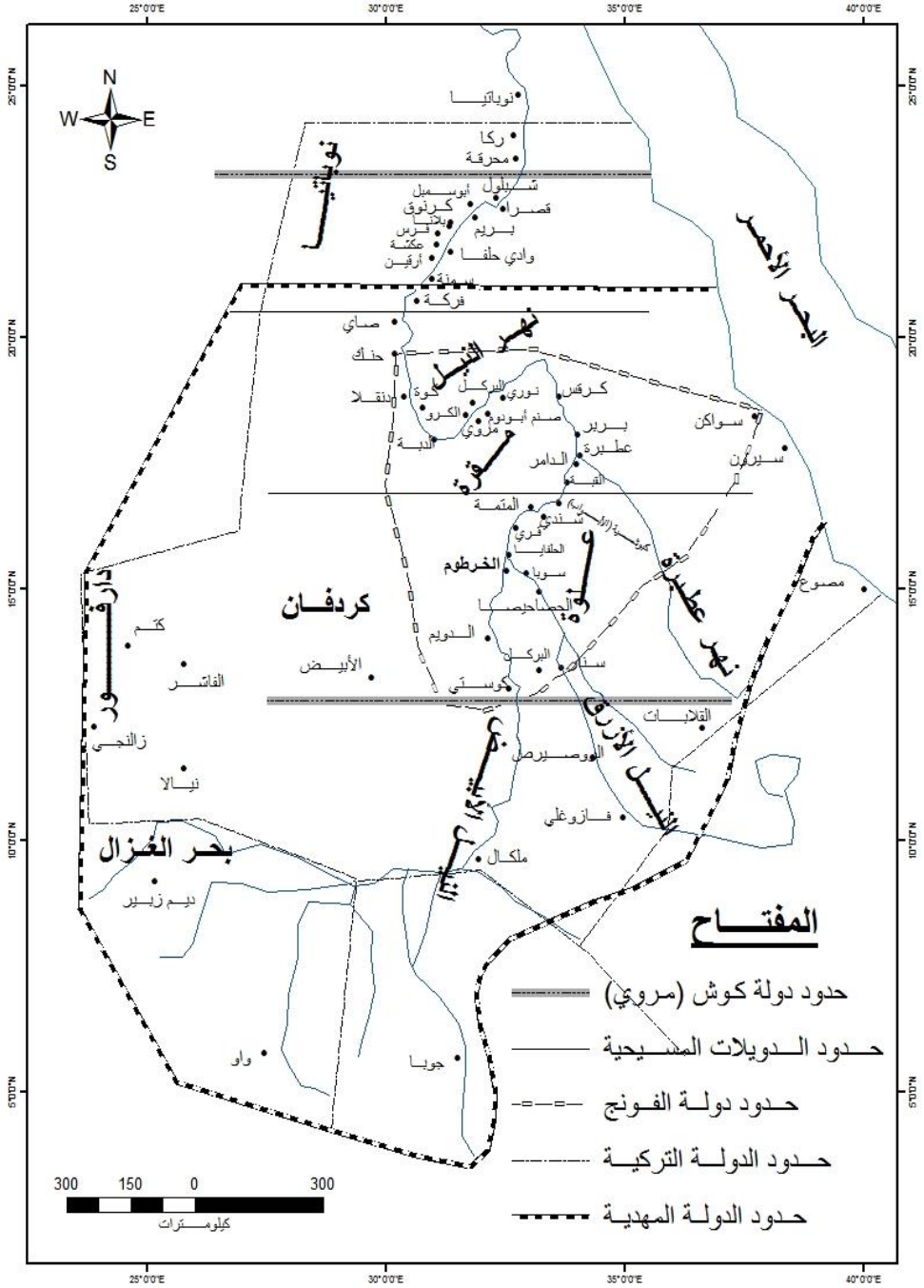
ومما سلف إيراده، لا مندوحة من القول إن هذه المجوهرات (المشغولات الذهبية) النفيسة تؤمّن إلى ما بلغه السودان في عهد مملكة مروى من ثراء إقتصادي كبير لم يقتصر على الصروح المعمارية الضخمة والمنتجات المختلفة (زراعية وحيوانية) بل إمتد ليشمل صهر وتصنيع المعادن (النحاس والحديد والذهب). وإستغل المعدن الأخير (الذهب) في تدعيم الإقتصاد الكوشي (المروى) وفي تقديم الهدايا والهبات التي نذرها الملوك وأبرزهم تهارقا لمعابد آمون (المعبود الرسمي لمملكة مروى). وقياساً بأعمال البناء التي وجه الأخير بإجرائها سيما في العقد الأول من حكمه، فإنه كان يمتلك قدراً كبيراً من الثروة توفرت للدولة من التجارة الخارجية والضرائب على المواطنين في كل من السودان ومصر، علاوة على العمل المكثف في مناجم الذهب في الصحراء الشرقية بمنطقة النوبة. ولعل هذا الثراء وبخاصة في المعادن (الذهب والنحاس والحديد) هو أحد الأسباب التي رفعت من شأن المملكة المروية ووضعتها في مصاف الدول العظمى في العالم القديم. وكما هو معلوم - لدى دارسي الآثار والتاريخ القديم - فقد سار بأخبار هذه المملكة العظيمة الركبان وذكرت في أسفار التوراة وفي السجلات الآتارية لمصر القديمة وبلاد الشام والرافدين ودول حوض البحر الأبيض المتوسط (بلاد الإغريق والرومان). ويلزم التنويه إلى أن السودان بوجه عام وإقليم الشلال الثالث بالولاية الشمالية عانى ولا يزال من ويلات تعددين عشوائيين معدن الذهب(الدهابة) منذ ثلاثة عقود وذلك على المستويين الرسمي والأهلي. ولاريب أن تداعيات هذا التعددين العشوائيين سالبة إذ أنها تؤدي إلى تدمير المواقع الأثرية والموروث الحضاري لأهل السودان.(علي، مرجع سابق:74-59). ولهذا يجب الإهتمام بتأمين المواقع الأثرية بواسطة الجهات الرسمية(وزارة الإعلام والثقافة والهيئة القومية للآثار والمتاحف) والعمل على نشر الوعي للمواطنين بأهمية الآثار والتراث عامة وتبيان أهميته في الحفاظ على الجذور وتمتين الهوية الوطنية ووحدة البلاد الجيوسياسية .

المراجع باللغة العربية:

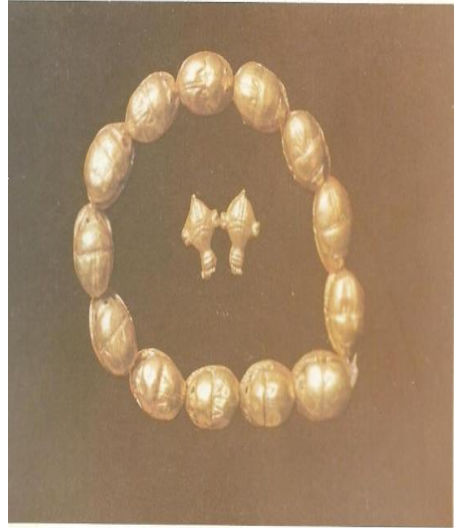
- (1) الزاكي، عمر حاج 2006. مملكة مروي: التاريخ والحضارة. إصدار رقم (7). وحدة تنفيذ السدود، رئاسة الجمهورية، جمهورية السودان.
- (2) بريشيه، كارل هانز 2005. ذهب مروي (ترجمة صلاح عمر الصادق)، دار عزة للنشر والتغليف، الخرطوم.
- (3) خبير، عبد الرحيم محمد 2021. «نشوء الدولة السودانية من منظور آركيولوجي - تاريخي» في كتاب: من تاريخ السودان الحضاري: شواهد أثرية وتاريخية، الدار العالمية للنشر والتوزيع، القاهرة: 26-58.
- (4) دفع الله، سامية بشير 1999. تاريخ الحضارات السودانية منذ أقدم العصور وحتى قيام مملكة نبتة. دار هایل للطباعة والنشر والتغليف، الخرطوم
- (5) علي، عبد الرحمن إبراهيم سعيد 2023. التعدين العشوائي للذهب وأثره على المواقع الأثرية (إقليم الشلال الثالث أمودجا). مجلة القلزم العلمية للدراسات التاريخية والحضارية، العدد الثالث والعشر ون: 59-74.

المراجع الأجنبية:

- (1) Adams, W.Y. 1977. Nubia. Corridor to Africa. London.
- (2) Trigger, B. 1976. Nubia under the Pharaohs. London



(شكل:1)



(لوحة 1: مشغولات ذهبية. مملكة مروي (900 ق.م - 350 م)
(بعد كارل بريشيه 2005)